

عنوان المداخلة: تمثلات القناع في الشعر العربي المعاصر، نماذج مختارة.

من إعداد الدكتورة حميدة قادوم/ جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة. قدمت في اليوم  
البحثي الوطني الموسوم: رمزية القناع من الطقوس البدائية إلى الفن المعاصر. يوم: 10 أكتوبر 2022.

الجهة المنظمة: جامعة صالح بوبنيدر، قسنطينة.

### ملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوعاً مهماً ضمن قضايا النص الشعري العربي الحديث والمعاصر، ويتعلق الأمر بظاهرة القناع التي شاع استخدامها عند الشعراء لضرورة أملت بها طبيعة الراهن السياسي والاجتماعي في الوطن العربي كافة. فأتخذ كوسيلة للتعبير عن مكونات الشاعر ومختلف أشكال الرفض تجاه الأنظمة التي تتحكم في الفكر الجمعي وتحرم عليه البوح بحقيقة الانسان وما تعانيه الأمة العربية من انتكاسات وخيبات أمل متكررة. وبالرغم من ذلك يظل الشعر متنفس الشعراء وجنتهم المفقودة بحثاً عن الحرية والخلص الأبدى. وتظلّ جمالياته الفنية أكبر دليل على التمسك بالحياة رغم كل الصعوبات.

الكلمات المفتاحية: تمثلات، القناع، الشعر، المعاصرة.

### Summary :

This study deals with an important topic within the issues of modern and contemporary Arabic poetic text ,it is related of the phenomenon of the mask, which was commonly used by poets because of the necessity dictated by the nature of the political and social current in the entire Arab World, It was taken as a means to express the poet's feelings and the various forms of rejection towards the systems that control collective thought, It is forbidden for him to reveal the truth of man and the recurring setback and disappointments that the Arab nation suffers from. In spite of this, poetry remains the poets' breathing space and their lost paradise in search of freedom and eternal salvation, and its artistic aesthetics remain the greatest evidence of adherence to life despite all difficulties.

Key words : representations, mask, poetry, contemporary.

## مقدمة:

عرفت القصيدة العربية المعاصرة تطورا على مستوى البناء والرؤيا، وكان هذا التطور مصاحبا للتطورات الحاصلة في العالم بصفة عامة، فظهرت تقنيات جديدة أسهمت في تحوّل النصّ الشعري والخروج به من رتابة الكتابة الاستعارية البسيطة إلى جماليات التأويل وتعددية القراءة التي أفرزتها ظواهره الفنيّة. ومن هذه الظواهر نجد؛ الأسطورة، والرمز، والقناع، وتأتي أهمية هذا الأخير (القناع) في اتساع مساحة توظيفه عند الشعراء المعاصرين أمثال: علي أحمد سعيد، وعبد الوهاب البياتي، وخليل الحاوي، وأمل دنقل، تميم البرغوثي، وبدر شاكر السياب، وغيرهم.

وقد اكتسب القناع شرعيته في بناء النصّ الشعري باعتباره تقنية تساعد على خلق نمط من الكتابة الشعرية التي تتراوح بين (التّخفي والظهور) و (البوح والكتمان) ممّا يجعل المتلقي طرفا شريكا في بناء القصيدة وكشف علاقاتها من خلال التّأخير والتّمويه الذي يمارسه الشاعر.

ويظهر توظيف القناع في الشعر العربي المعاصر من خلال استدعاء الشخصيات التّراثية فيصطلح عليه بالقناع التّراثي، أو من خلال الشخصيات الأسطورية ويسمى القناع الأسطوري، أو من خلال بعض الشخصيات التي يتفنّن الشاعر في نسجها من خيالاته، ويسمى بالقناع المخترع.

وتأتي هذه المداخلة؛ بغرض الكشف عن تمثّلات القناع وأنماط حضوره في نماذج مختارة من الشعر العربي المعاصر، ونخصّ بالدراسة والتّحليل نماذج من شعر بدر شاكر السياب. وبذلك نحاول الإجابة عن التّساؤلات التالية: ما دوافع لجوء الشاعر المعاصر إلى توظيف القناع؟ وما الأنماط الأكثر شيوعا؟ وما حقيقة الشخصيات التي يوظفها السياب في القصيدتين؟ وما الجمالية الفنيّة لتقنية القناع فيها؟

## أولاً : ماهية القناع وحدوده المعرفية:

إنّ الحديث عن القناع باعتباره مصطلحا مجردا يحملنا إلى ضرورة الوقوف عند تعريفاته القديمة والحديثة كما جاء في المعاجم اللغوية، حيث لم تترك العرب قديما شاردة ولا واردة إلا وأشارت إليها، وقد ورد ذكر القناع فيها بوصفه غطاء يستعمل لتغطية الوجه أو الرأس فهو "ما تغطي به المرأة رأسها..." وفي حديث عمر أنّه رأى جارية عليها قناع، فضربها بالدرة (منظور، 1984)، وقيل أيضا: " القناع مفرد جمعه (قنec) و(أفنة) وهو ما يستر به الوجه" (الجوهري، د.ت).

وهكذا، تقرّ المعاجم اللغوية العربية بأنّ القناع مقابل للغطاء، بينما يختلف المعنى الاصطلاحي للفظة القناع عند غير اللغويين، ولعلّ أول استخدام لهذا المصطلح كان متعلّقًا بالفنّ المسرحي خاصة لدى الإغريق الذين وظفوه في مجال التمثيل المسرحي ومنحوه أدوارا مختلفة على رأسها أدوار أنصاف الآلهة، وأدوار الشخصيات الأسطورية الخارقة، ويستعمل القناع باعتباره أداة التلبّيس، تحمل صفات معينة، إمّا خيرة وإمّا شريرة. وتأخذ الشخصية المسرحية من القناع صفاته وحركاته، وعلى سبيل المثال كان " السّاحر المقنّع الذي يقوم بدور إله الموت يُنظر إليه على أنّه إله الموت نفسه" (الشمعة، 1997، صفحة 80)

وبالتالي يشترط على الشخصية المسرحية التّنعع ولبس صفات الشخصية المتنعع بها حتى تجيد تقديم الدّور وتفقنه، خاصة في المسرحيات الدينية القديمة، وذلك بغية التأثير في المتلقين. وبالرغم من انتماء القناع le masque إلى الفضاء المسرحي في البدء، وتعلّقه بالطقوس الدينية إلا أنّه انتقل إلى الأدب عامة وإلى القصيدة الشعرية خاصة، نظرا لحمولته الثقافية والإيديولوجية والإثنية التي يمكن أن يثري بها النصّ الشعري خاصة في مرحلة ما الحداثّة وما بعدها، حيث أصبحت الحاجة ملحة إلى البوح بالمعارضة في ظلّ هذه التّقنية التي تسمح للشاعر بممارسة طقوس الرفض التي يراها تجاه مجتمعه.

فكانت البداية مع مطلع القرن العشرين حيث خلقت علاقة وطيدة بين القناع والقصيدة الشعرية، وهي علاقة مستمدة من العلاقة الوطيدة بين المسرح والقناع، وهذا ما دفع "الباحثين إلى افتراض أنّ القصيدة القناع وُجدت من منظور الشعر الدرامي وأنّ بداياتها إنّما تختلق في رحم النصوص الشعرية المسرحية." (كندي، 2004، صفحة 66).

وقد اعتمد الشعراء المعاصرون العرب خاصة على هذه التّقنية الحداثيّة في نظم نصوصهم الشعرية ذات الأبعاد الثورية والتّعبير عن الرفض للواقع العربي، وتفننوا في توظيفها وكثير منهم من نجح في

استثمارها حسب ثقافته وقدرته على تفعيل العلاقة الحقيقية الناتجة عن القناع ، والمتمثلة في جدلية (الإظهار والإخفاء) التي يسقطها الشاعر على الشخصية المتقنع بها بحيث تقوم هذه الأخيرة بحالة من التقمص بما يمكن عدّه عملية إزاحة وإحلال بين الشخصية والممثل الذي يقوم بدورها والحقيقة أن هذه العملية لا تقوم على انفصالها التام، بل إن حضور إحداهما يستدعي حضور الآخر ويتفاعل معه. (بسيسو، 1996، صفحة 20).

مما يعني أنّ توظيف القناع في الأدب العربي أصبح ضرورة أملت الحاجة إلى إيجاد شخصية يتقنع بها الشاعر ليعبر عن مواقفه ورواه الشخصية من خلالها، أو بصيغة أخرى "الحديث بلسان الشخصية، فيصبح صوت الراوي/الشاعر هو صوت الشخصية التراثية، أو يكون صوت الشاعر نفسه" (هلال، 2007، صفحة 190).

وهذا الفعل لا يتأتى للشاعر /الكاتب إلا إذا تأكد أنّ الشخصية التي يريد التقنع بها مؤهلة لأن تحمل عنه عبء المعنى المكثف وثقل الرسالة التي يرغب في إيصالها إلى جمهور المتلقين بحيث يصبح القناع "وسيلة للتعبير عن وجودك أنت، لا باعتبارك شاعرا له همومه الخاصة، أو وجودا ذاتيا مستقلا، ولكن بوصفك صوت الجماعة أو الشاعر الذي توحد مع بقية الثورة، والانسان النوع في هذا العصر، فأنت بذلك خرجت من ذاتك فردا لتتوحد بالكون، فالقناع بذلك هو رؤيا كونية وموقف وجودي." (سعدالله، 2007، صفحة 190).

بناء على ما سبق، يعدّ القناع وسيلة مهمة، وأداة فاعلة تمكّن الشاعر من الإفصاح واستخدامه باعتباره رؤية كونية اجتماعية تعبر عن الجماعة الإنسانية بكثير من الموضوعية والتّحدي، وهذا ما أصبح الشاعر المعاصر بحاجة إليه، خاصة في ظلّ التّضيق النّظامي الذي يعانيه الشاعر العربي، وتتمثل "القرينة اللفظية الدّالة على وجود القناع هي ضمير المتكلم الذي ينوب الشاعر والشخصية معا. أمّا القرينة المعنوية الدّالة على أنّ القصيدة مقنعة فهي وجود تفاعل بين ذاتية الشاعر ولوازمه، وبين خصائص الشخصية المستدعاة وشروطها المرجعية." (الشطي، 2013، صفحة 02)

ولعل أكثر ما ساعد على تبني هذه التقنيّة وتوظيفها لدى كثير من الشعراء؛ هو شكل القصيدة الحرّة التي أثبتت حاجتها إلى أساليب وتقانات حدائثة تسهم في الحفاظ على قلبها الجديد وتحقّق الحرية الشعرية والفكرية للشاعر، هذا من جهة. ونظرا للتأثر الظاهر برواد الشعر الغربي-من جهة أخرى- أمثال: ت. س

. إليوت Eliot S.T، وياوند Paund ، اللذان اشتهرا باستخدام القناع. وهكذا أصبح القناع وسيلة المعاصرين في الابداع وشكل مهم من أشكال القصيدة العربية المعاصرة.

### ثانيا: دوافع اللجوء إلى تقنية القناع في الشعر العربي:

لم يكن لجوء الشاعر العربي إلى توظيف تقنية القناع مجرد تقليد للشاعر الغربي، أو انبهارا بهذا الوافد الجديد فحسب، وإنما كان له مبرراته التي دفعته إلى خلق معادل موضوعي لرؤيته النقدية تجاه المجتمع والأشخاص، وتمثله مختلف أنماط القناع التي وظفها بوعي كبير، ومن الدوافع التي يمكن الإشارة إليها:

#### 1- البحث عن الحرية الفكرية:

والتعبير عن وجهات النظر بكل أريحية لأن تقنية القناع "تمنح الشاعر مجالا للتعبير ليفصح عن أفكاره على نحو فني يبعد القصيدة عن المباشرة والسطحية وينأى عن أن يكون عرضة للأذى والملاحقة" (خزاعل، 2010، صفحة 15) ولا شك أن ما يعانيه الشاعر في الوطن العربي من ضغوطات من كل جانب كانت السبب الأول في اللجوء إلى هذه التقنيات الغربية التي توسعت في الأدب العربي لتشمل الشخصيات التراثية، والأسطورية والأدبية وغيرها، مما تمكنه من رصد الأحداث الحقيقية ونقلها في قالب شعري ممتع ونافع في الوقت نفسه، ومن خلاله "يضي على صوته نبرة موضوعية شبه محايدة تتأى به عن التدفق المباشر للذات، دون أن يخفي الرمز المنظور الذي يحدد موقف الشاعر عن عصره." (عصفور، 1981، صفحة 133).

ولعلّ الدافع التاريخي/التراثي كان أهم الدوافع التي أدت بالشاعر إلى توظيف الشخصيات التراثية والحديث من ورائها والتعامل مع أصواتها" من منظور تفسيري يحاول من خلاله أن يكشف تلك الروح الشاملة الخالدة الكامنة في هذا التراث" (زايد، 2006، صفحة 31).

#### 2- التأثر بالثقافة الغربية:

ومن مظاهر التأثر بالثقافة الغربية هو التأثر بالنظريات الأدبية الغربية، وخاصة في الشعر، فكانت نظرية (المعادل الموضوعي) التي صاغها إليوت من أهم النظريات التي استفاد منها الشاعر العربي، وشجعت على توظيف مختلف التقنيات الفنية كالرمز والأسطورة والقناع، لذلك يبدو أن "تحقيق معادل

موضوعي في قصائدهم، واستلهم نماذجه المحققة شعريا في النتاجات الغربية من أهم الأسباب التي قادت إلى تقنية القناع في القصيدة العربية الحديثة" (كندي، 2004، صفحة 149).

وهذا ما يبرز دور (ت . س . إليوت) ومساهمته في تجديد الشعر العربي وظهور نماذج حديثة من خلال معادله الموضوعي الذي استطاع "أن يبسط ظلّه على العالم الشعري المصري الحديث، ومن ثم على الشعر العربي الحديث بأسره" (زايد، 2006، صفحة 157) .

### 3-دوافع فنية إبداعية:

بدأ الشاعر العربي منذ بداية القرن العشرين خاصة في البحث عن أدوات فنية وتقنيات إبداعية وبلاغية في الوقت نفسه، تعينه على إيصال صوته للمتلقي وجذب المهتمين بالشعر العربي، فما كان له إلا الرجوع إلى الأصل والتراث العربي الذي يزخر بكم هائل من المادة الأدبية، ومع تأثره بالثقافة الغربية ونظرية المعادل الموضوعي وجد نفسه مجبرا على المزج بين واقع التجربة الشعرية العربية والنظرية الغربية" فكانت قصيدة القناع حصيلا لعلاقتي المثاقفة والتناص بين الشعر العربي الحديث والمصادر الأنجلو- ساكسونية ممثلة في الشعر الإنجليزي بنماذجه القناعية المبكرة التي قرنت بين القناع والمونولوج الدرامي، كما تتجلى في بعض قصائد براوننج " (الشمعة، 1997، صفحة 75).

ويعد القناع أحد هذه الوسائل التي حققت له هذا التناسق والمزج اللطيف بين الماضي والحاضر، وبذلك "يجعل القصيدة ذات معان تصلح لكل زمان ومكان، وعندما يتّحد الماضي والحاضر لتغيير الكون تختلط الأزمنة وتصبح القصيدة شمولية" (سعدالله، 2007، صفحة 199).

والشمولية مطلب مهمّ جدّا في تكوّن القصيدة العربية المعاصرة، ذلك أنّها تسهم في تعميق الرؤيا وتوسيع دائرة الفهم لدى المتلقي، لأنّ القناع عادة "ما يكون حضوره في النصّ معدّدا للقراءات ومخصبا للتأويلات وهذا مما يخرج القراء من موضع التّقبل السلبي الانفعالي للنصّ الشعري إلى محل المشاركة في إنتاجه" (الشطى، 2013، صفحة 16). ثم إنّ النظرة الشمولية التي تحقّقها قصيدة القناع تسهم في تحقيق الاتصال بين ماضي الأمة وحاضرها دون أن يوقعها في فخ الابتذال، فيكون القناع بذلك "كفيلا بتحقيق الموضوعية، وهو يضيف على العمل الأدبي طابع التّعمق، وتخفيف التّزعة التّقريرية الدّاتية لكي يعبر الشاعر تعبيرا دراميا عن الحياة والوجود والمعاني" (سعدالله، 2007، صفحة 198).

### 4-دوافع سياسية:

ترتكز مهمّة الشاعر الأولى على تصوير الواقع الاجتماعي، ونقد ما فيه من سلبيات ورفض الواقع الذي لا يحقق العدالة الاجتماعية، وتنتشر فيه الرذيلة والفقر والجهل وما إلى ذلك من أعراض تشوه المجتمع، ولأنّ الواقع الاجتماعي تحكمه قوى سياسية ومبادئ نظامية عامّة لم يكن بوسع الشاعر أن يعبر عن كل ذلك دون أن يتعرض للمضايقات والضغوطات من جميع الأطراف، فكانت حاجته لهذه التقنية /القناع كحاجة العطشان للماء، وهو ما عبّر عنه الشاعر (بدر شاكر السياب) بقوله: "كان الواقع السياسي أول ما دفعني لذلك، فحين أردت مقاومة الحكم السعدي بالشعر، اتخذت من الأساطير -التي ما كان لزيانية نور السعيد أن يفهموها- ستارا لأغراضي تلك، كما استعملتها للغرض ذاته في عهد القاسم." (زايد، 2006، صفحة 34).

يبقى الغرض من استخدام القناع هو التستر والتّخفي عن الرقابة السياسية، وهكذا يمارس الشاعر وظيفته التنويرية والنقدية بكل أريحية لأنّ "ميزة النّقص في القناع تتم عبر مجموعة من الخواص اللفظية التي قد تنطبق مع خواص الشاعر الحقيقية ولكن ليس من الضروري في تلاقينا للنّص واستنتاج معناه أن تعرف إن كانت تتطابق في الواقع أو لا تتطابق." (السكر، 1999، صفحة 220).

ومما لا شك فيه أنّ (السياب) واحد من الشعراء الثوريين الذين التقوا إلى ضرورة توظيف هذه التقنية للدفاع عن قضايا المجتمع، بحيث يضمن له القناع الحرية في التعبير من خلال استدعائه لشخصيات تراثية وأخرى أسطورية، وبعضها أدبية فنّية في صورة من صور التّجلي والتّخفي الذي يقوم عليها القناع، وهنا يمكن الإشارة إلى بعض الشخصيات الفاعلة التي وظفها الشعراء وأغلبها شخصيات تاريخية حاملة بالثورة والتغيير على غرار: الحلاج، والمتنبي، و مهيار الديلمي، وغيرها. ومن الشخصيات الأسطورية التي تقنع بها الشعراء: السندباد، تموز، عشتار، الفينيق، وهي نماذج يتواروا خلفها "ليمارسوا مقاومتهم للطغيان وخاصة تلك التي أعلنت تمردا على هذه السلطة في عصرها." (زايد، 2006، صفحة 33).

### ثالثا: أنماط القناع الأكثر شيوعا:

عرفت هذه التقنية انتشارا واسعا في الشعر العربي المعاصر وفق ثلاثة أنماط مهمّة؛ " منها الأسطوري الضارب في أعماق التاريخ الإنساني، ومنها الخرافي المسئل من التراث الشعبي، ومنها الديني الذي يعود بأصله إلى الديانات السماوية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام، ومنها التاريخي الذي يتفرع إلى أدبي وحربي وسياسي، ومنها المبتدع الذي اجتهد الشاعر العربي الحديث في نحت كيانه وتشكيل ملاحمه النفسية" (الشطي، 2013، صفحة 03) وفي هذا الصدد سنكتفي بعرض الآتي :

## 1-القناع البسيط:

وهو أبسط الأنماط التي استعان بها الشعراء في نظم قصائدهم وتقوم على اعتماد شخصية واحدة يتخذها رمزاً له، ومن خلالها يقوم يدور المتحدث فتصبح القصيدة قائمة على قناع لشخصية واحدة دون أن يشرك معه رموزاً أو شخصيات أخرى، وفي هذا النمط نجد أنّ " الشخصية القناعية تحتفظ بوضع خاص يجعلها مركز العمل وملتقاه ومكوناته، وما كان فيها من شخصيات أخرى، إنّما تظهر كونها مساعدة لتأكيد التوظيف وتنامي الشخصية الرئيسية فلا تغدو إلى خلط أو تشويش في ملاحقة وإسناد الضمير إلا في حدود ضيقة." (كندي، 2004، صفحة 175)

ويشترط في القناع البسيط أن يكون المبدع عارفاً بالشخصية المتقنع بها في أدق تفاصيلها " فيسقط عليها التجربة المعاصرة بكل همومها وهواجسها بعد أن عايش تلك الشخصية فترة طويلة أو قصيرة من الزمن، فتشربها وهضم مكوناتها وتمثل عصورها، مما يؤدي إلى التأثير بها تأثيراً فنياً خاصاً، يكسبه شيئاً من صفاتها ويضفي على الشخصية ظروف المبدع وأحواله المعيشية والنفسية، وهكذا يتشكل وجود جديد لكل منهما يكسب استقلاله ظاهرياً، ويخوض التجربة ويتلفظها." (كندي، 2004، صفحة 183.184)

## 2-القناع المركب:

ويقوم هذا النمط على المزج بين شخصيتين مختلفتين، ويلجأ المبدع إلى هذا النوع عندما لا يحقق القناع الأول الرؤية الحقيقية التي يريها، فيستعين بآخر بعد أن يخلق مزيجاً مركباً من الرؤية الأحادية التي يرغب في تمثيلها، وهذا النموذج نجده كثيراً عند (عبد الوهاب البياتي) في قصيدته "محنة أبي العلاء" التي جمع فيها بين شخصية أبي العلاء وشخصية الفلكي جاليليو، وهذا التركيب يجعل المتلقي يتساءل عن العلاقة بين الشخصيتين.

## 3-القناع المخترع:

يقوم القناع المخترع على " تجاوز الشاعر للرموز والشخصيات العامة، مبدعاً رموزه وشخصياته الخاصة ويصطحبها في أعماله الشعرية، متخذاً منها أقنعة فنية - أحياناً - يعبر من



خلالها عمّا يريد ، فيقيم معها تفاعلا من نوع خاص، تكون نتيجة تجربة شعرية جديدة خالية من أغلب الترسبات الفكرية والمواضيع التاريخية والأسطورية، فيتسع بذلك أفق التوقع في النص. " (كندي، 2004، صفحة 182.181)

ويعني هذا أنّ القناع المخترع لا يقوم على الشخصيات الجاهزة والمعروفة، بل يعتمد شخصيات من ابتكاره حسب ما يوافق تجربته الشعرية، ومن أمثلة ذلك شخصية (عائشة) التي ابتكرها (البياتي) في قصيدة "ميلاد عائشة" وجعلها قناعا يتحدث من ورائع باعتبارها رمزا أساسيا بين رموزه الشخصية التي يستعين بها بين الوقت والآخر للتعبير عن رؤيته الكونية للحياة والعالم.

#### رابعا: تمثلات القناع عند بدر شاكر السياب

يعتبر السياب من الشعراء المعاصرين الذين كان لهم السبق في تجريب التقنيات الشعرية الحديثة كالرمز والأسطورة والقناع وغيرها، ونظرا لطبيعة التجربة الشعرية للسياب التي يتمثلها من خلال قصائده، يتبين لنا إصراره على التوجه الثوري وانتقاد العالم الاجتماعي رغبة في تحقيق العدالة الاجتماعية. ولعل ما عاناه السياب في حياته من فقر وتهميش، إضافة إلى رفضه من قبل المجتمع بسبب انتقاده لمعالم الوسامة كما يذكر، وجد نفسه وحيدا لا شيء يؤنسه غير القلم وكلماته الشاعرة.

ومن أجل أن يخلد معاناته ومواقفه تجاه الحياة والعالم، لجأ إلى تقنية القناع في أكثر من موضع شعري، يتقصد من خلاله أصوات شخصيات بعضها حقيقي تراثي، وبعضها الآخر أسطوري خيالي من اختراعه، وبعضها ديني.

#### 1- القناع المخترع في قصيدة حفار القبور:

بالوقوف عند قصيدة " حفار القبور" التي ينقل من خلالها معاناة الفقر والاحتياج، نجد أن الشاعر لجأ إلى التقنع بشخصية حفار القبور كما يتخيلها، ويعيش مواقفه وردة فعله تجاه الأحياء والأموات على حد سواء، وهو ما يمكن أن نطلق عليه (القناع المخترع).

#### \* سيميائية العنوان:

الملاحظ على هذا العنوان هو وجود لفظة حفار على وزن فعّال، وهذه الصيغة تستعمل للتعبير عن التصاق الفعل بالشار إليه، وهذا الالتصاق يكون عامة عن طريق الملازمة والإصرار ممّا يجعل

المسند إليه متميزا بهذا الفعل ومتفردا به دون غيره، وهذا ما نراه في لفظة حفّار؛ كثير الحفر، فجاءت اللفظة مقترنة بكلمة القبور لتتم المعنى وتقض اللبس فهو حفار قبور لا غير.

ومنذ العنوان تبدأ تتكشف لنا شخصية غريبة لم يلتفت إليها الشعراء من قبل، هذه الشخصية التي تثير الفزع والنفور منذ الوهلة الأولى، فتبدأ العلاقة بين الشاعر والشخصية المشار إليها بالظهور لنكتشف بعدها مباشرة في المتن تقمصه وكلامه هن طريق هذه الشخصية التي تتحول إلى قناع يرتديه الشاعر ويتحدث من ورائه.

القبور: جمع مفردة قبر يحيل إلى الموت والنهاية والظلمة والوحدة، وهو معروف لدى الجميع بكونه تلك الحفرة المظلمة التي تضم الجثث.

### **\*سيمائية الفضاء المكاني:**

يستهل الشاعر قصيدته بوصف الفضاء العام الذي تدور فيه حكاية حفار القبور، باعتباره شخصية مبتكرة/مخترعة من قبل الشاعر، خاصة بعد أن منحها أبعادا وصفات تخالف الواقع الإنساني. وجعلها مبعث الشرور والأناية وصانعة الأحزان، يقول في وصف الفضاء:

ضوء الأصيل يغيم كالحلم الكئيب على القبور

واه، كما ابتسم اليتامى أو كما بهتت شموع

في غيبه الذكرى يهوم ظلهن على دموع

والمدرج النَّائي تهبّ عليه أسراب الطيور،

كالعاصفات السود، كالأشباح في بيت قديم

برزت لترعب ساكنيه

من غرفة ظلما فيه (السياب، 2015، صفحة 169)

يمثل الفضاء المكاني في هذا المقطع فضاء تنتهي فيه الحياة وتنتهي الابتسامة، ويشير إلى المقبرة الموحشة التي تنتهي عندها ملذات الحياة، وهذا ما عبرت عنه الوحدات الدالة: الحلم الكئيب، كالأشباح، لترعب ساكنيه، غرفة ظلماء وغيرها.

بحيث يشكل هذا الوصف الدقيق لفضاء المقبرة تداخل شخصية الراوي/الشاعر مع شخصية حفار القبور المخترعة، فنجده يصف المكان بتفاصيله الدقيقة بداية من الزمن (ضوء الأصيل) إلى وصف (المرج النائي) (كالعاصفات السود، كالأشباح) وهكذا تطفو شخصية حفار القبور على السطح وتغيب فيها شخصية الشاعر وتتماهى.

ينتقل الشاعر في هذه القصيدة القناعية من واقعه ليعيش حياة حفار القبور وينظر من خلالها إلى العالم في صورة من صور التطابق العجيبة، مستحضرا حقيقة ما يحدث في فضاء المقبرة من تجاوزات خطيرة ( كأنّ بعض الساحرات /مدت أصابعها العجاف الشاحبات إلى السماء) فيزداد المكان خطورة ويشد رعبا ، ويتحول من فضاء للإيمان والاستسلام إلى قدرة الخالق لأنه وحده يرث الأرض بعد موتها، يتحول إلى فضاء للرديلة والشور والأسحار ( كأنّ ديدان القبور فارت لتلتهم الفضاء وشرب الضوء الغريق).

فكل ما في هذا المكان عدو للإنسان، فالغريان والديدان والساحرات جميعها تقتات على جثث الموتى الضعيفة البليدة تحت الثرى، بشكل عجيب، وقد تقنع الشاعر بشخصية حفار القبور ليظهر من خلاله تطابق معاناته في الحياة رغم سعيه واجتهاده، إنّ حفر القبور ودفن الموتى هي مهنة يعيش منها صاحبها وهي مهنة صعبة وقاسية جدا تجعل الانسان يتجرد من انسانيته فيصبح موت الآخرين حياة له.

إنّ تمنى موت الآخرين من أجل كسب لقمة العيش هي من أبشع الصور التي يحدثنا عنها السياب في هذه القصيدة الدرامية، وبالرغم من ذلك نجده يتضامن مع هذه الشخصية يجد لها مبرراتها في الأنانية وقسوة القلب. وهذه المبررات ما كان يجدها لو لم يكن لبس قناع الشخصية وتحدث من ورائها معبرا عن معاناته الشخصية.

**\*سيماء الشخصيات:** اجتمعت في هذه القصيدة شخصيات متشابهة، يجمع بينها الشر والعوز في

الآن نفسه، ولكن أغلبها مجرد وحدات دالة يقدمها الشاعر ويبرر أفعالها، ولكنه لا يتضامن معها بل نجده في النهاية يعتدي عليها دون رحمة. ومنها:

**الساحرات:** فئة من النساء الشريرات يتاجرن بحياة الأشخاص مقابل المال، ويمكن للساحرة أن تعتدي على القبور وجثث الموتى بلا خوف أو تردد مقابل الحصول على المال، لا يعضهن الموت والقبور ولا يخشين الظلام والأشباح وهذا ما عبر عنه الشاعر بقوله:

كأنّ بعض الساحرات

مدّت أصابعها العجاف الشاحبات إلى السماء

تومي إلى سرب من الغريان تلوّيه الرياح

في آخر الأفق المضاء

حتى تعالى ثم فاض على مراقيه الفساح. (السياب، 2015، صفحة 165)

**حفّار القبور:** وهي الشخصية المحورية التي تقنع بها الشاعر وتحدث من خلالها، فيندمج صوته مع صوت الشخصية، ويتداخل الموقف بينهما فيصبح موقف الشاعر تابع لموقف وقناعات الشخصية المنقنع بها، ويبرر أفعاله بأنه فقير بانس معدوم فيقول:

كفّان جامدتان ، أبرد من حياة الخامدين

وكأنّ حولهما هواء كان في بعض اللحود،

في مقلة جوفاء خاوية يهوم في ركود

كفان قاسيتان جائعتان كالذئب السجين

وفم كشق في جدار

مستوحد بين الصخور الصم من أنقاض دار

عند المساء... ومقلتان تحدقان ، بلا بريق

وبلا دموع ، في الفضاء. (السياب، 2015، صفحة 166)

فهي شخصية تعاني من الحرمان والعوز الشديد إلى جانب النفسية المدمرة، ويمكن التمثيل عن ذلك بالجدول الآتي الذي يبين الوحدات الدالة:

الوحدة الدالة	الصفة
كفان جامدتان.	البرد
كفان قاسيتان جائعتان.	الجوع
وفم كشق في جدار مستوحد بين الصخور من أنقاض دار.	الوحدة
ومقلتان تحدقان، بلا بريق، وبلا دموع، في الفضاء.	قسوة القلب

هذه المعاناة التي يعيشها حفار القبور، وهذه صفاته فلا أحد يسأل عنه، أو يسد جوعه، ولا أحد يؤنسه غير تلك القبور، حتى جفت دموع العين وازداد القلب قسوة فأصبح ينتظر النعش كمن ينتظر الحياة.

يقول: هو ذا المساء

يدنو، وأشباح النجوم تكاد تبدو، والطريق

خال فلا نعش يلوح على مداه... ولا عويل

إلا النّحيب

وتتهد الرياح الطويل. (السياب، 2015، صفحة 166)

ومن المبررات التي يقدمها الشاعر لحفار القبور، وتنميه الموت للآخرين، هو وجود أشخاص لا يستحقون الحياة، بل إن الموت راحة لهم ولغيرهم، ويقصد بهؤلاء المرضى الذين يتألمون في كل وقت وحين

(والكون الرحيب ، باق يدور .. يعج بالأحياء: مرضى، جائعين، بيض الشعور كأعظم نخرات- لكن خالدين لا يهلكون؟)

يتحدث الشاعر على لسان حفار القبور وكله ثقة بأن بعض الناس لا يستحقون الحياة كالمرضى وكبار السن والبؤساء الفقراء الجائعين، وأن موتهم سيوفر عليهم المعاناة، ويصبح هو أولى بهذه الحياة، وهذا ما يجعله يرفع يديه إلى السماء، داعيا بهلاكهم في المساء، في صورة مركبة تتم عن شرور الانسان أمام المادة وأنانيته أمام حاجته الخاصة. فيقول:

وهزّ حفار القبور

يمناه في وجع السماء، وصاح ربّ أما تثور

فتبيد نسل العار.. تحرق، بالرجوم المهلكات

أحفاد عاد، باعة الدم والخطايا والدموع؟

يارب ما دام الفناء غاية الأحياء، فأمر يهلكوا هذا المساء

سأموت من ظمأ وجوع.

إن لم يمت- هذا المساء إلى غد- بعض الأنام

فابعث به قبل الظلام (السياب، 2015، صفحة 167).

## 2- القناع المضاد في قصيدة المخبر:

تظهر لنا قصيدة المخبر نمطا جديدا من أنماط القناع أطلق عليه (حاتم الصكر) القناع المضاد أو النقيض، لأن الشاعر يتفاعل معه بصورة عكسية يبين من خلالها وضاعة هذه الشخصية وما تلحقه من أذى للآخرين لا لشيء سوى لكسب رضى العدو، خاصة أن الشاعر نظمها في فترة سياسية حرجة عايشها بكل ألم وهو يرى الأبرياء يسقطون بسبب الخونة المزروعين في كل مكان، وهكذا " يجري السياب تعديلا مهما على تقنية القناع التقليدية المفترضة اختفاء الشاعر وراء شخصية تاريخية أو معاصرة لتوصيل أفكاره، فيختار شخصيات ضدية أو مفارقة لوعيه وأفكاره ليوصل من خلالها دلالات نصوصه." (الصكر، 2017)

### \* العنوان:

يعبر العنوان "المخبر" عن معنى الجاسوس أو الخائن الذي ينقل الأخبار من جهة إلى أخرى، ويتقنع الشاعر بهذه الشخصية ويتماهاى معها بطريقة جعلت صوته يندمج مع صوت الشخصية المتقنع بها. وقد شاع استخدام هذه الشخصية عند كثير من الشعراء الذين عايشوا ظروف الحروب في الوطن من مشرقها إلى مغربها، والواضح أن جهود المخبرين كانت مضاعفة لإحباط عمل المناضلين الأحرار.

جاء العنوان وحدة لغوية واحدة مؤكدة بالتعريف الذي ينبئ عن علاقتها بما يأتي بعدها في مستهل النص (قل عني ما تشاء...أنا الحقير) ليصبح الضمير (أنا) قرينة لغوية متعلقة تعالقا مباشرا مع صفات الشخصية (المخبر) التي تظهر على مستوى المتن.

### \*متن النص:

أما في المتن فنجده يعلن منذ المقطع الاستهلاكي بسيطرة شخصية المخبر على شخصية الشاعر ويتحدث من خلالها، فتطفو إلى السطح من خلال القرينة اللفظية الدالة الممتلئة في ضمير المتكلم أنا حيث تكرر كثيرا معلنا اندماجا كبيرا بين الصوتين، ويقوم بتعداد صفات المخبر والاعتراف بسوئه وذلك من خلال الوحدات الدالة: الحقير، الغراب، الدمار، الخراب. وقد اجتمعت هذه الصفات جميعها لتشابهها في المعنى وتقاربها من ناحية السوء.

فالحقير هو الدليل المهان، والغراب هو جنس من الطيور يتميز بسواد لونه ويقف على الديدان والحشرات. أما الدمار والخراب فهما صفتان متلازمتان تؤديان معنى الهلاك عامة.

وقد برزت شخصية المخبر أو الجاسوس في خمسينيات القرن الماضي، وعاش السياب هذه الظاهرة التي كانت تحبط كل محاولة للتحرر في العراق، وكأنه تنبأ بما سيؤول إليه، لذلك فالقصيدة " تنتمي سياقيا لفترة التزامه الحزبي في الحركة الشيوعية في العراق، وإيمانه بالفكر الماركسي ومقولاته حول الطبقات ودورها في التاريخ، ولموقفه الراض للملكية التي كانت تحكم العراق ومن إنتاج النص في الخمسينيات. " (الصكر، 2017)

يتداخل صوت الشاعر مع صوت الشخصية ويتفاعل معها لدرجة أن " الصوتين اللذين يتشكل القناع من تفاعلها لا يظان في حالة سكون، بل يجاذب أحدهما الآخر محاولا أن يفرض سيطرته، ويبدو الأمر كما لو كانت الشخصية التاريخية تفرض سياقها الخاص على الشاعر في نفس الوقت الذي يريد فيه الشاعر تطويع هذه الشخصية وإدخالها في سياق جديد" (عصفور، 1981، صفحة 124) وهذا التفاعل بين الصوتين يظهر في شكل متناسق شديد الالتصاق بالقرائن الدالة عليه، على نحو ما يقول:

### نهض الحقير

وسأقتفيه فما يفر، سأقتفيه إلى السعير

أنا ما تشاء، أنا اللئيم، أنا الغبي، أنا الحقود

لكنما أنا ما أريد أنا القوي، أنا القدير

أنا حامل الأغلال في نفسي، أفيد من أشياء

بمثلهن من الحديد، واستبيح من الخدود  
ومن الجباه أعزهن، أنا المصير، أنا القضاء.

الحقد كالتنور في إذا تلهّب بالوقود (السياب، 2015، صفحة 26).

وهكذا تظل شخصية المخبر تطفو إلى السطح معلنة قدر الخيانة والغدر التي تفوح منها. ولعل هذا التنوع في توظيف القناع عند السياب هو ما جعله رائدا في هذا المجال، حيث تنوعت استخداماته له بين القناع المبتكر والقناع السياسي والقناع الديني والقناع المضاد وغيرها.

### \*القناع الديني في قصيدة "المسيح بعد الصلب":

تقص الشاعر في هذه القصيدة شخصية المسيح عليه السلام وتقعع بها معبرا عن معاناته في الحياة، وتبقى القرائن اللغوية المعبرة عن ذلك تظهر من خلال العنوان الذي وسمها "المسيح بعد الصلب" ليعبر من خلاله على حادثة الصلب كما رويت عن المسيح عليه السلام، ويبرز القناع أكثر ويتماهى مع شخصية الشاعر من خلال الكتابة بصيغة المتكلم، فيقول:

بعدهما أنزلوني، سمعت الرياح

في نواح طويل تسف النخيل

والخطى وهي تتأى إنن فالجراح

والصليب الذي سمروني عليه طوال الأصيل. (السياب، 2015، صفحة 111).

تتطابق حياة الشاعر مع حادثة الصلب للمسيح عليه السلام، فيصفها بألم كبير، يظهر من خلاله معاناته مع الفقر والمرض والسجن في الوقت نفسه، وهي تشبه معاناة المسيح. وقد أعلن السياب عن هذه القصيدة في أحلك الظروف التي عايشها، حيث أصيب بمرض عضال عز شبابه، مثلما عانى القهر والسجن جزاء مواقف السياسية، ورغبته في تغيير العالم إلى الأفضل، وبذلك تصبح حياته فداء لقضيته الإنسانية العادلة، وتصبح معاناته تحريرا لكل المهجورين في العالم العربي، وقد أحسن الشاعر اختيار الشخصية المتقنعة بها في هذا الموضوع، وذلك "ليصور معاناته في سبيل بعث أمته فالصلب رمز العذاب الذي يعانیه الشعب الجائع، وتشير الشخصية إلى السياب الذي اضطهد وأبعد وتشرد، فهو يموت من أجل فكرة لا تنتهي إلا بموته" (موسى، 2003، صفحة 218)، وهذا ما عبّر عنه بقوله:

متُّ كي يؤكل الخبز باسمي، لكي يزرعوني مع الموسم

كم حياة سألحيا ففي كل حفرة

صرتُ مستقبلا، صرتُ بذرة



صرتُ جيلا من الناس، في قلب دمي

قطرة منه أو بعض قطرة. (السياب، 2015، صفحة 112)

تنوعت الأفعنة التي استفاد منها السياب للتعبير عن أحلامه وآماله، وعن مواقفه ونضاله تنوعا يكشف عن عمق التجربة الحدائرية عنده، ووعي لواقعه المعيش في ظل الأنظمة السياسية القائمة على تكميم الأفواه، فعاش أحلامه ورؤاه من خلال شعره الذي لا يتكرر. وأصبح شعره نموذجا حدائريا مهما لاشتماله على مظاهر الحدائرية والمعاصرة التي جعلت شعره متنوعا بين الشعر الإنساني والشعر الرومانسي والشعر الثوري النضالي وغيرها.

### خاتمة:

استطاع الشعراء العرب أن يطوروا من نموذجهم الشعري باستخدام الجماليات الممكنة من أجل اللحاق بركب المحدثين، وقد كان القناع أحد هذه الجماليات التي عبرت عن عمق التجربة الشعرية من جهة ووعي بقدرة الكلمة الشاعرة على تغيير المجتمعات والذهنيات، وحاولوا قدر الإمكان تبليغ تلك المواقف والرؤى الكونية في ظل الحصار النظامي الذي يحيط بهم من كل جانب، معتمدين في ذلك على شخصيات تراثية متنوعة ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل ذهبوا إلى اختراع شخصيات من وحي الخيال وتفننوا في دمجها بروح التجربة الشعرية والتفاعل معها والممارسة البوح من خلالها على نحو يشي بتحول عميق في مسار القصيدة العربية المعاصرة. وتبقى النماذج المقدمة في هذه الدراسة مجرد إطلالة على جانب بسيط من جملة الأنماط القناعية التي وظفها السياب، ناهيك عن تجارب باقي الشعراء أمثال علي أحمد سعيد والبياتي وأمل دنقل وغيرهم.

المراجع:

- 1- ابن منظور، محمد بن مكرم (1984) لسان العرب، (ط3)، دار صادر: بيروت.
- 2- الجوهري، إسماعيل بن حماد (د.ت) الصحاح، دار العلم للملايين: لبنان.
- 3- السياب، بدر شاكر (2015)، أنشودة المطر (د.ط) مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة: مصر.
- 4- الشمعة، خلدون (1997)، تقنية القناع، دلالة الحضور والغياب، (ع01) (مج17)، فصول، الهيئة العلمية العامة:

مصر.

- 5- الشطي، فوزية (2013)، القناع في الشعر العربي الحديث، المجلة الإلكترونية الكلمة (ع75) الموقع الإلكتروني: <http://www.alkalimah.net>
- 6- الصكر، حاتم (1999)، مرايا نرسييس (د.ط)، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر: بيروت.
- 7- الصكر، حاتم، القناع الضدي قراءة نصية لقصيدة السياب "المخبّر" الموقع الإلكتروني: [hatemalsager.com](http://hatemalsager.com)
- 8- بسيسو، عبد الرحمان (1996)، قصيدة القناع في الشعر العربي المعاصر، تحليل الظاهرة، (ط1)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر: بيروت.

- 9- رضا، غلام وآخرون (2010) ، الرموز الشخصية والأقنعة في شعر بدر شاكر السياب (15ع) (مج06)، مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها: طهران.
- 10- سعد الله، محمد سالم (2007) ، أطياف دراسات في النقد الإسلامي المعاصر (د.ط) ، عالم الكتب الحديثة: الأردن.
- 11- عصفور ، جابر (1981)، أقنعة الشعر المعاصر، مهيار الدمشقي (04ع) ، (مج 01)، الهيئة العامة المصرية: مصر.
- 12- زايد، علي عشري (2006) ، إستدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر (د.ط) ، دار غريب للطباعة والنشر: مصر.
- 13- كندي، محمد علي (2004) ، الرمز والقناع في الشعر العربي المعاصر، (د.ط) ، دار الكتاب الجديدة : لبنان.
- 14- هلال، عبد الناصر (2007) ، الشعر العربي ، انشطار الذات وفتنة الذاكرة(ط1)، (د.ط) دار العلم والإيمان: كفر الشيخ مصر.